الباب الثاني

صقر قريش

رجل ذو همة عالية، أوتي صلابة كالفولاذ، كأنما قُدَّ من صخر.

إنه عبدالرحمن بن معاوية بن هشام بن عبدالملك بن مروان، سليل الأمويين، الذي استطاع الفرار من العباسيين لينشئ في الأندلس دولة قوية.

إنه الرجل الذي لقبه داهية العباسيين أبو جعفر المنصور بصقر قريش.

ولم تلبث دولة بني العباس أن ظهرت وأخذت قتال بني أمية ومن يتصل بهم، بداية من سنة ١٣٢ للهجرة.

وكان من ضمن الفارين يحيى بن معاوية بن هشام وأخوه الأصغر عبدالرحمن.

كان الأصغر يرقب الأحداث بحذر، بينما استهان الأكبر بحياته، وصِدق حدسه في العباسيين الذين بذروا لأعدائهم بذرة الأمان عند نهر الفرات وهم يكنون في صدورهم الغدر.

وسرعان ما سقط الأكبر قتيلاً، بينما انطلق الأصغر فاراً مجتازاً نهر الفرات يبحث عن ملاذ وأمان.

obeikandl.com

وبعون من الله أولاً ثم من غلامه بدر وغلام أخته سالم استطاع الفرار إلى إفريقية. حيث استقر عدد من الأمويين، وأرسل مولاه بدراً، بعد أن عبرا إلى الأندلس ليتصل بأمراء الأندلس.. وكان من بينهم أبو عثمان عبيدالله بن عثمان وأبو عبدالله بن خالد.

رحب الأمراء بالوافد الجديد، ونشط الأميران أبو عثمان وأبو عبدالله إلى الصُميل بن حاتم أمير القيسيين ليشد من أزر عبدالرحمن فتردد، فتركه أميرا اليمنية، وقررا أن يدعما عبدالرحمن بن معاوية ما وسعهما الجهد.

لم يمض من الوقت إلا القليل، وإذا بعبد الرحمن قد علا قدره بين الناس، وأقبل الشبان ينضمون إليه، لكن يوسف الفهري أمير الأندلس قرر أن يقضي على الوافد الجديد.

وسرعان ما التقى جيش عبدالرحمن وجيش يوسف الفهري في الميدان، وكانت الغلبة لجند عبدالرحمن سنة ١٣٩ للهجرة.

دخل عبدالرحمن قرطبة وأسس دولة الأمويين في الأندلس، صالح عبدالرحمن كلاً من يوسف الفهري والصميل بن حاتم على شرط طاعتهما إياه.

إنه حين صالحهما دعاهما للإقامة معه بقرطبة، وتعهدهما بالرعاية والصلة، حتى لقد أطلق لهما زوجاتهما وأولادهما.

وها هو يوسف يفرّ من قرطبة سنة ١٤١ للهجرة، ويجمع جيشاً ويعود للإجهاز على عبدالرحمن.

لكن عبدالرحمن سار إليه والتقى معه وهَزم جيشه، ففرَ يوسف، ولكن أحد أصحابه قتله.

ومات الصميل في السجن وانتهت الفتنة.

ولعل أشد ما لقيه عبدالرحمن من شدائد دعوة العلاء بن مغيث لأهل الأندلس إلى طاعة العباسيين. خرج عبدالرحمن من قرطبة إلى حصن قرمونة وحاصر العلاء، وفرق جيشه، ثم كان العلاء من القتلى، فعمد عبدالرحمن إلى رأسه فبعثها إلى أبي جعفر المنصور.

تُرى ماذا كانت النتيجة؟

نظر المنصور إلى الرسول حامل الرأس وقال قولته المشهورة: «إنّا لله وإنا إليه راجعون، عرضنا بهذا المسكين للقتل، الحمد لله الذي جعل البحر بيننا وبين هذا الشيطان»(*).

وشهد له بقوة الحيلة وشدة البأس فقال لأحد جلسائه: «أخبرني من هو صقر قريش من الملوك؟».

(*) راجع ابن القوطيه، ص٣٤

obeikandl.com

وبعد أخذ ورد.. قال:

صقر قريش عبدالرحمن بن معاوية، الذي عبر البحر، وقطع القفر، ودخل بلداً أعجمياً منفرداً بنفسه، فمصّر الأمصار، وجنّد الأنصار، ودوّن الدواوين، وأقام ملكاً عظيماً بعد انقطاعه بحسن تدبيره وشدة شكيمته.

ثم ثار اليمنية على عبدالرحمن بقيادة سعيد اليحصبي المطري بمدينة لبلة سنة ١٤٩ للهجرة، ٧٦٦ للميلاد. استولى سعيد وأنصاره على إشبيلية وتحصنوا بإحدى القلاع، فسار إليهم صقر قريش وحاصرهم، ثم ظفر برأس المطري فانتهت الثورة.

وإذا بالمهدي الخليفة العباسي يتآمر مع ثوار الأندلس للإطاحة بعبدالرحمن سنة ١٥٨ للهجرة.

حرق صقر قريش سفن الثوار الراسية بساحل البحر قرب بلنسية، وهزمهم، فهربوا.

لكن هل يصفو الجو لعبدالرحمن داخل مملكته؟

obeikandl.com

هيهات له ذلك!

لقد دبر ابن اخته واسمه المغيرة بن الوليد بن معاوية سنة ١٦٨ مؤامرة بالاتفاق مع ابن الصميل.

وحين انكشفت المؤامرة أمر عبدالرحمن بقتلهما.

ولم يلبث عبدالرحمن بعد ذلك طويلاً.

فقد رحل عن عالمنا في جمادى الأولى سنة ١٧٢ للهجرة، تشرين الأول سنة ٧٨٨ للميلاد. ودفن بالروضة في قصر إمارته.

أكان صقر قريش رجل حرب وكفى؟!

كلا، لقد كان رجل حضارة كذلك.

لقد بذر بذور الحضارة الإسلامية بالأندلس، وجدد حضارة أجداده الأمويين هناك.

وعمل على تنظيم الإدارة وطبقّها عملياً في دولته، ونجح أيضاً في إنقاذ الأندلس من الحروب الأهلية، وأرغم عدوه اللدود أبا جعفر المنصور على الاعتراف به خصماً لا يستهان به لدولة بني العباس، وهو الذي لقبه بصقر قريش.

obeikandl.com

أقام عبدالرحمن حركة عمرانية ومعمارية ضخمة في الأندلس، ومن ذلك بنى مدينة الرصافة شمالي غرب قرطبة، وفي مدينة الرصافة بنى قصره المشهور: قصر الدمشق.

وأعاد صقر قريش بناء جامع قرطبة سنة ١٦٩ للهجرة، كما أقام نهضة علمية بقرطبة.

فهل استمر خلفاؤه في السير على نهجه؟!

هذا ما سنراه في الفصول القادمة بإذن الله.

obeikandl.com